المفارقة الدرامية في سورة يوسف عليه السلام

*رنا أحمد عبد الحليم**

ملخص

يهدف هذا البحث للكشف عن فاعلية آلية المفارقة في سورة يوسف عليه السلام، وبيان مواطن الجمال في هذه القصة، واعتمد البحث على نوع واحد من أنواع المفارقة وهي المفارقة الدرامية، كونها الأكثر ملاءمة في دراسة القصص؛ إذ أنها تعتمد في جوهرها على نموّ الأحداث وتأزمها، وقد اكتفيت بالقرآن الكريم مصدراً أساسياً للبحث.

وخلص البحث إلى جملة من النتائج أَثبتُّها في الخاتمة، وكان من أبرزها أنّ قصة يوسف من أكثر القصص القرآني غنى بالمفارقات؛ وهذا يرجع لطول القصة وتنوع شخوصها وأحداثها، وتعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة.

الكلمات الدالة: المفارقة، سورة يوسف، القصة القرآنية.

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً ملء السموات والأرض وما بينهما وملء ما يشاء بعد، والصلاة والسلام على النبي الأميّ الذي علّم الناس وهداهم من ظلمات الجهل والتخلف إلى نور العلم والرشاد.

لقد كان القرآن الكريم وسيظل محطّ أنظار الدارسين والباحثين من شتى المعارف والعلوم، فهو المعجزة الخالدة الذي لا يخلق بكثرة الدراسات ولا يبلى بكثرة الترداد، بل إن القارئ له في كل مرة يشعر أنه يقرأ هذا الكتاب العظيم لأول مرة.

ولقد تم اختيار دراسة قصة يوسف – عليه السلام – دراسة نصية؛ لما اشتملت عليه من عناصر القصة الفنية من شخوص وزمان ومكان وأحداث وغيرها، وبما انمازت به من دقة في الوصف سواء أكان ذلك وصفا للشخصيات أم الأماكن أم الأحداث، وعلاوة على ذلك فإن المفارقة شكلت جزءاً أصيلاً في بنية أحداث القصة في سورة يوسف.

واعتمد البحث على المفارقة الدرامية؛ لملاءمتها لجو القصة المشحون بالتوتر والصراع، ولا سيّما بين إخوة يوسف وسيدنا يعقوب –عليهما السلام– من جهة، وصراع يوسف –عليه السلام– مع امرأة العزيز من جهة أخرى، كما أن تقلّب الأحوال واختلاف الأمكنة أسهم في خلق مفارقات كثيرة، إذ تم دراسة المفارقة الدرامية في سورة يوسف –عليه السلام– وفق التسلسل الزمني لأحداث القصة.

الدراسات السابقة

وتأتي هذه الدراسة التي تناولت موضوع المفارقة الدرامية في قصة يوسف عليه السلام مكملة لدراسات سابقة عُنيت بتحليل الشخصيّات والزمان والمكان والأحداث في القصة القرآنية، وقد أفدت من هذه الدراسات في الكشف عن جماليات قصة يوسف عليه السلام، ومن أهمها:

1. يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، 2010م.

جاء الحديث عن المفارقة في المبحث الثاني من الفصل الثالث، حيث عرض الباحث مفهوم المفارقة في السرد القرآني بنوعيها: الأولى مفارقة الأحداث، التي قصد بها انقلاب يحدث في مجال الأحداث والمواقف مع مرور الزمن، والثانية المفارقة اللفظية التي قصد بها انقلاب يحدث في الدلالة إذا يعمل اللفظ بشكل مناقض لما يتوقعه المتلقي عادة، وأشار للمفارقة بنوعيها في قصة يوسف عليه السلام، بالإضافة إلى قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام.

2. محمد العبد، المفارقة القرآنية، 2006م.

وقد أفرد محمد العبد في مؤلفه أنواع المفارقة في الخطاب القرآني وقسّمها لأنماط متعددة من أهمها اللفظية، والحكاية، والبنائية وغيرها، فكانت دراسته مختصة في الجانب اللغوي،

* دكتوراه في الدراسات النقدية والأدبية، جامعة العلوم الإسلامية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2015/03/29، وتاريخ قبوله 2016/06/11.

© 2017 عمادة البحث العلمي وضمان الجودة/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

وبحث المفارقة في بُنية الدلالة، وعلى ذلك لم يتعرض للمفارقة في القصص القرآني بشكل خاص.

3. التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، 1974م.

تناول هذا الكتاب الجانب النفسي في القصة القرآنية، وسلط الضوء على قصة يوسف عليه السلام في الفصل الرابع: نظرات في قصة يوسف، واشتمل على سير الأحداث في القصة، والجانب النفسي في القصة، والأحلام في القصة، وبين القرآن والعهد القديم.

وتتميّز هذه الدراسة عن سابقاتها بتوظيف أداة نقدية حديثة تُعين على إبراز جوانب الإعجاز ومواطن الجمال في قصة يوسف عليه السلام.

تمهيد: مفهوم المفارقة

المفارقة أداة أسلوبية وظيفتها إقامة التضاد بين ما هو مباشر وغير مباشر، وهذا الأسلوب يحمل في طياته معنيين؛ أولهما: معنى قريب لا يحتاج إلى عناءٍ كبير في فهمه، والآخر معنى بعيد يُفهم بعد القراءة المتأنية الفاحصة.

يقول شليجل: "إنّ المفارقة شكلٌ من النقيضة، والنقيضة شرط لا بدّ منه للمفارقة، فهي روحها ومصدرها ومبدؤها" (ميويك، 1987).

ويقول أيضا: "إنّ المفارقة تقوم على إدراك حقيقة أن العالم من جوهره ينطوي على تضاد، وأن ليس غير موقف النقيضين ما يقوم على إدراك كليته المتضاربة" (يوسف، 2001).

والمفارقة في رأي صموئيل هاينز: "نظرةٌ في الحياة تجد الخبرة عرضةً لتفسيراتٍ متنوعة ليس فيها واحدة صحيحة دون غيرها، وأن تجاور المتنافرات جزءٌ من بنية الوجود" (ميويك، 1987).

يقول الآن رودوي: "إنّ المفارقة ليست مسألة رؤية معنى حقيقي تحت آخر زائف، بل مسألة رؤية مزدوجة على صفحة واحدة" (ميويك، 1987).

مما سبق نرى أن شليجل عدَّ التضاد أو ما سماه بالنقيضة الأمر الأساسي لوجود أيّ مفارقة، أما هاينز رأى أهمية تعدد القراءات وتجاور المتنافرات أمراً لا بد منه، فالحياة مبنيةٌ على التنوع والتعدد، وهذا ما وافق رؤية رودوي الذي يؤمن بازدواجية المعنى للنص الواحد.

وترى نبيلة إبراهيم: "أن المفارقة لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين؛ صانع المفارقة وقارئها على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي، وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالبا ما يكون المعنى الضد، وهو في أثناء ذلك يجعل اللغة ترتطم بعضها ببعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلا بعد أن يصل إلى المعنى يرتقيه ليستقر عنده" (إبراهيم، 1995).

ويقول عبد القادر الرباعي: "المفارقة أسلوبٌ مثير؛ لأنه في أخص خصائصه ناتجٌ عن تقاطع داخل النفس بين ما يتوقع وما يحدث واقعاً، وهي حيلة بلاغية يستخدمها الكاتب للتعبير عن معنى يتضاد مع معنى آخر مستقر في الذهن، وهناك مجموعة من التقنيات التي تتحقق المفارقة بها أو من خلالها إذ من الممكن أن يوضح الكاتب بأن المعنى المخفي يتناقض تماما مع المعنى الظاهر، ومن الممكن أيضا أن يبني جملته على أساس التعارض بين المتوقع والمنجز، أو بين الوضع البارز والحقيقة الكامنة خلفه" (الرباعي، 1996).

والحقيقة أن المفارقة أداةٌ أسلوبيةٌ فاعلةٌ في أي نصٍّ أدبي تشترط وجود عناصر أربعة كما استخلصتها نبيلة إبراهيم:

1. وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد؛ المستوى السطحي للكلام على نحو ما يعبّر به، والمستوى الكامن الذي لم يعبّر عنه، والذي يلّح القارئ على اكتشافه إثر إحساسه بتضارب الكلام.

2. لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص.

3. غالبا ما ترتبط المفارقة التظاهر بالبراءة، وقد يصل الأمر إلى حد التظاهر بالسذاجة أو الغفلة.

4. لا بدّ من وجود ضحية في المفارقة (إبراهيم، 1995).

ونستطيع أن نتبين بوضوحٍ أنَّ للمفارقةِ عناصر وهي: صانع المفارقة وغالباً ما يكون كاتب النص أو أحد أبطاله، والنص الذي يكمن فيه التعارض أو التضاد الظاهري وفيه يتم بث الرسالة، وضحية المفارقة إما أن يكون أحد شخصيات العمل الأدبي أو القارئ لهذا النص.

المفارقة الدرامية

إن المفارقة الدرامية أكثر التصاقاً بالفنون النثرية ومنها القصص، فهي مرتبطةٌ بسير الأحداث وتطورها عبر مراحل زمنية مختلفة، "وتعتمد المفارقة الدرامية على بنية العمل أكثر من اعتمادها على علاقة الكلمات بدلالاتها، ولذلك فقد ارتبطت هذه المفارقة أساساً بالمسرح، وكانت تسمى أحياناً مفارقة سوفوكليس نسبة إلى المسرحيّ المعروف" (شبانة، 2002).

وهذا النوع من المفارقة ليس مقترناً بالمسرح فقط، وإنما يمكن أن نجد له نماذج في الأدب بعامة ولا سيما النثري منه، فالأحداث عنصرٌ أساسي من عناصر القصة ولا تظهر المفارقة إلا بتطور الأحداث وبمرور الزمن.

ويبرز دور الصراع الذي يتشكل مع نمو الأحداث في الكشف عن عمق المفارقة وتأثيرها، ويذكر لنا خالد سليمان أن (كونوب ثروول) ركّز في دراسته (المفارقة عند سوفوكليس) على أن التناقض بين الإنسان بآماله ومخاوفه وأعماله وبين القدر العنيد الذي يحيط به، يوفر مجالاً واسعاً للكشف عن هذا النمط من المفارقة.

يقول d. h. green: إن فهمنا للمفارقة الدرامية يستدعي إلى الذهن استحضار ثلاثة عوامل:

"**أولاً:** يقتضي توفر توترٍ في العمل القصصي، ويمكن خلق هذا التوتر من خلال وضع شخصيةٍ تتسم بالغفلة في مقابل أخرى أقوى منها أو في مقابل قوة أخرى مهما كانت هذه القوة أو الشخصية إنساناً أو إلهاً أو أية قوة مثالية أخرى، ولا بد من علاقة ما بين ما تعلمه الشخوص وما يعلمه الجمهور قائمة على شيء من التضاد أو الحرج، ولذا يخالط مشاعر الجمهور نحو الشخصية شيء من الخوف والترقب والتعاطف.

ثانياً: في هذا الوضع المحكوم بالتوتر يجب أن تكون الشخصية الأولى الضعيفة الغافلة جاهلة بحقيقة الظروف التي تحيط بها، وبهذا يكون هناك تناقض بين مظاهر الأشياء وحقيقتها.

ثالثاً: يكون الآخرون وهم المشاهدون أو الذين لا يشاركون في صنع الأحداث أو توجيهها على وعي تام بالوضع الحقيقي للشخصية الغافلة، وبالتالي فإن المشاهدين أو الآخرين يكونون على علمٍ بما سبّب إخفاق الشخصية الغافلة التي كانت تجهل حقيقة ما يجري حولها" (شبانة، 2002).

ومما سبق نستنتج أن توظيف المفارقة بوصفها أداة أسلوبية في أي عمل أدبي يُضفي عليه مسحةً من جمال أخاذ وتأمل عميق، فطبيعة المفارقة أنها تقول شيئا دون أن تنطق به، فالإيماء أو التلميح يكون أعمق تأثيرا من التصريح، وبذلك يكمن دور المتلقي بالتقاط المعنى المُراد دون ملاحظته بشكلٍ مباشر وهذا يتطلب متلقيا ذا عقلية متوقدة تمكنه من الكشف عن مواطن الجمال في النص الأدبي.

إنّ توظيف أداة المفارقة في القرآن الكريم له خصوصية كبرى؛ فقد أعطى للمتلقي عبر الأزمنة المختلفة مهمة استنباط الرسالة وفهمها والتقاط المعنى المراد بطريقة تعلي من عقل الإنسان ودوره في فهم مراد الخالق سبحانه وتعالى.

سورة يوسف

سورة يوسف من السور المكية وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية، واستغرقت القصة ثمانياً وتسعين آية، ولهذه القصة خصوصية تتماز بها عن سائر القصص القرآني؛ فلقد نزلت دفعة واحدة في سورة بأكملها سميت باسم (يوسف)، وهذا الأمر لم يكن لنبي غيره.

وقد وصفت قصة يوسف أنها أحسن القصص، في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣) واختلف العلماء في شرح لفظة (أحسن)، فمنهم من يقول: إن التفضيل هنا واقع بين القصة كما رواها القرآن الكريم والقصة كما وردت في العهد القديم، ومنهم من أشار إلى أن هذه القصة أحسن القصص لما فيها من تنوع شخوص وتعدد أمكنة وأزمنة وتزاحم العبر والحكم والفوائد، ومنهم من يشير إلى أن الحسن في هذه القصة يعود إلى جمال الأسلوب وتعدد طرائق عرض المشاهد، أضف إلى ذلك عذوبة الإيقاع الذي لا يخلو من نبرة حزن وألم، ومنهم من يرى أن السبب في الحسن النهاية السعيدة التي حظيت بها شخصيات القصة، وهذا كله حق؛ فالقصة تصور حياة نبي كريم من سنوات صباه الأولى إلى بلوغه مبلغ الرجال، كاشفة بذلك عن قيم إنسانية وأخلاقية ودينية، فهي لا تصور يوسف بطلا وإنما تجسد القيم الأخلاقية من عفة وأمانة وصدق.

يقول الإمام النيسابوري: "ووجه حسنها اشتمالها على الغرائب والعجائب والنكت والعبر، وأن الصبر مفتاح الفرج وأن ما قضى الله كائن لا محالة لا يرده كيد كائد ولا حسد حاسد" (النيسابوري، 1995).

"إن القصص القرآني هو أحسن القصص لأنه قصص حقيقي، واقعي، قصص هادف وبنّاء وهو أحسن القصص في حُسن ألفاظه وروعة أسلوبه ورفعة وسمو مقاصده ودقة وجلال معانيه، وهو أحسن القصص لأنه نزل من عند أحكم الحاكمين... ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى أنه ليس في القرآن شيء أفضل من شيء، وليس هناك قصة أحسن من قصة، وإنما لكل قصة أسلوبها وطريقتها وسياقها ومقاصدها، والقرآن كلام الله _عز وجل _ وهو على درجة واحدة من الحسن والقوة والروعة والرفعة والتناسق والمواكبة لكل زمان ومكان، وقصة يوسف_ عليه السلام _ من أحسن القصص؛ لأنها جزء من القصص القرآني، وهي من أحسن القصص لما يتعلق بها من عبر وعظات ولكثرة ما عالجته من مقاصد وموضوعات" (الشرقاوي، 2003).

ولعلّ بداية سورة يوسف بالأحرف المقطعة (الر) تدل على نصف كلمة الرؤيا، وقد تضمنت القصة أربع رؤى وتأويلاتها إذ "يعتمد النص القرآني في سورة يوسف على الرؤى في تطور الحدث اعتماداً لافتاً، ولعلّ القارئ الكريم يعرف أن الرؤيا تستطيع أن تسهم إسهاما بالغا في تطور الحدث وفي تصوره المستقبلي، ولعله يعرف أيضا أن الحدث يمكن أن يتقدم

ويتطور في السرد من خلال الرسائل والاعترافات والمذكرات والكوابيس والأحلام والحوار وغير ذلك" (الحطيني، 2009)، فتبدأ أحداث القصة برؤيا يوسف وتنتهي بتأويلها مروراً بأحداث متتالية كل منها يفضي إلى الآخر.

فنرى أنَّ غيرة إخوته منه أدّت بهم إلى وضعه في الجبّ، وهذا الحدث بدوره أدّى إلى أن تلتقطه السيّارة ويبيعوه لعزيز مصر، وهناك تُفتن به امرأة العزيز، ويُودع في السجن إبعاداً له ويخرج من السجن رغبةً من الملك ويُصبح عزيز مصر، فهذه الأحداث المترابطة من جهة، والمتناقضة من جهةٍ أخرى تدلُّ على عظمة الله وقدرته، وأنه القادر على تصريف أمور عباده.

"وهذا العرض الممتد الجامع لقصة يوسف من شأنه أن يلفتنا إلى الإعجاز المبين في النظم القرآني، ذلك الإعجاز الذي تتجلى آياته فيما يستولي على قارئ القصة أو المستمع إليها من روعة الجلال وسطوته، ومن يقظة الوجدان ونشوته، على امتداد العرض وتعدد المشاهد، دون أن يفقد الشعور وحدته، ودون أن يجد المتلقي لأحداث القصة مجالاً للتحرك خارج مسارها" (الخطيب، 1974).

وسنتوقف عند أهم المحطات التي كان لها أكبر الأثر في سير الأحداث وتأزمها ونموها، للكشف عن جماليات المفارقة في القصة.

المفارقة في رؤيا يوسف:

يبدأ المشهد بقصّ يوسف الطفل على أبيه مناماً رآه وعجب منه ((إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)) (يوسف: ٤) وهنا يسند فعل السجود للجمادات الذي هو من لوازم الإنسان، وهذا الانزياح التركيبي يضفي على النص قوة بتحطيم ما هو مألوف.

وتتضمن رؤيا يوسف – عليه السلام – مفارقة صارخة، فكيف لإنسان أن يرى الكواكب والشمس والقمر في وقت واحد وليس هذا فحسب وإنما يراها في هيئة السجود له، "ورؤيا يوسف للشمس والقمر والكواكب تتميز بإعجاز؛ لأننا جميعاً نرى الشمس والقمر والكواكب ولكن الشيء العجيب في هذه الرؤيا أنه رأى الشمس والقمر يجتمعان معاً" (الشعراوي، 2007)، وفي الآية ما يدل على أنه رأى هذه الأجرام السماوية واستطاع أن يحصي عددها، ثم بعد ذلك رآها تسجد له (الشعراوي، 2007).

وعلى الرغم من أن الرؤيا جاءت منسجمة مع مخيلة الطفل الذي يخلع على الجمادات صفات إنسانية، إلا أن هذا الرؤيا أدهشت يوسف وجعلته يتلهف لقصّ رؤياه على أبيه.

فقد استخدم يوسف – عليه السلام – التوكيد (إنّي) فضلا عن تكرار الفعل (رأيت) لما له من تقرير فعل المشاهدة، وأن رؤياه تلك كانت على وجه الحقيقة في منامه لا محض خيال.

ونعلم من الآية الكريمة أنّ الإخوة لم يكونوا في هذا المشهد لقول يعقوب –عليه السلام– لابنه ألا يخبر إخوته بهذه الرؤيا ((قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)) (يوسف: ٥)، ويعقوب النبي يعرف تماماً مشاعر الغيرة والحسد التي تستولي على نفوس أبنائه تُجاه يوسف، "فالله سبحانه وتعالى قال: ((فيكيدوا لك)) ولم يقل ((فيكيدوك)) إذ إنّ ((يكيدوك)) أي أن يفعلوا بك شرّاً، أما (فيكيدوا لك) أي أنهم سيفعلونها شراً من جهتهم ولكنها ستكون خيراً لك ولمصلحتك" (الشعراوي، 2001).

وجاء تكرار لفظة (كيد) مؤكدًا لنوازع الشر في نفوس الإخوة في المرة الأولى بصيغة المضارع التي تفيد الاستمرارية والديمومة (فيكيدوا) أما في المرة الثانية فجاء الكيد بعمومه نكرة (كيدا) للدلالة على الوسائل والطرق الكثيرة التي قد يتبعها الإخوة للتخلص من يوسف.

كما أن يعقوب – عليه السلام – يدرك معنى الرؤيا التي رآها ولده ويستبشر بها خيرا، فتنتابه عاطفتان؛ الأولى خوفه على يوسف من كيد إخوته، والثانية الفرح والسرور بمستقبل يوسف الذي ينتظره ً ((وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ))(يوسف: ٦)

المفارقة في علاقة الإخوة

لقد كاد الإخوة ليوسف دون ذنب اقترفه ذلك الطفل الصغير، فيقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ((لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)) (يوسف: ٧) ويرفع القرآن الكريم الستار عن مشهد تآمر إخوة يوسف عليه، ً ((إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) (يوسف: ٨).

وبالرغم من عدم معرفتهم برؤيا يوسف إلا أنهم كادوا له واستدرجوا أباهم ليقبل أن يأخذوه معهم ويحققوا رغبتهم في التخلص منه، فالإخوة يعرفون أنهم مقدمون على فعل خاطئ وهو التخلص من يوسف ويقررون التوبة بعد ذلك: ((اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)) (يوسف: ٩).

وبعد ما وضعوا الحجة التي يستندون عليها لتسويغ ما سيقومون بفعله، يتداولون الرأي في الاحتمالات الممكنة

للتخلص من يوسف، فأحدهم يقترح القتل، والآخر النفي والإقصاء، أما الأخير فقد كان رأيه الأقرب إلى الصواب في نظر البقية، وهو أن يلقوه في غيابة الجب لتلتقطه بعد ذلك القافلة المارة من تلك الطريق، قال تعالى على لسان الإخوة: ((قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)) (يوسف: ١٠).

والجميل أن القرآن الكريم يصف شعور يعقوب –عليه السلام– تجاه أبنائه على لسانهم، فنحن نعلم هنا أنه ما كان ليأمنهم على يوسف، ((قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)) (يوسف: ١١).

وهنا صاحب المفارقة كما هو واضح الإخوة المتآمرون والضحية هو سيدنا يعقوب – عليه السلام – وتبدأ جملة المفارقة التي وضعها الأبناء أمامه، فهم يتظاهرون بمحبة أخيهم الصغير ويريدون أن يخرج معهم للّعب واللّهو.

ويؤكدون هذا الأمر بمجموعة من التوكيدات؛ ليبرهنوا على صدق قولهم الذي يعني الضد تماماً، وهنا يبرز مشهدان متعارضان، استنادا لما يظهره الإخوة وما يخفوه؛ فيظهر مشهد واسع ممتد للعب واللهو يقابله مشهد الجب الضيق الذي سيقبع فيه يوسف وحيدا دون حراك.

وفي قبوله لرغبة أبنائه باصطحاب أخيهم يوسف مع يقينه أنّ نواياهم سيئة مفارقةٌ كبرى، وتفسير ذلك يعود إلى تسليمه الكامل بقضاء الله وقدره، فهاتان العاطفتان المتناقضتان في ظاهرهما، متفقتان في جوهرهما، فحزنه وخوفه على يوسف لم يمنعاه من التوكل على الله؛ ليقينه أن الله سيحفظه له وأنه يقدر له الخير، فكيف كان ليوسف أن يصل إلى سدة الحكم دون كيد إخوته له؟

وبعد نجاحهم في التخلّص من يوسف رجع الإخوة إلى أبيهم متظاهرين بالحزن المفرط وأخفوا سعادتهم الغامرة في نجاح خطتهم ((وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)) (يوسف: ١٦).

فالظلام كما هو معروف يعطي شيئاً من الخفاء والستر، الذي يتفق وظاهر قولهم وحقيقة أمرهم، فهم يقولون شيئاً ويتصرفون خلافه، "وإن استخدام القرآن الكريم للجملة الفعلية (يبكون) لوصف حال الإخوة، يدل على اصطناعهم فعل البكاء، ولو كان البكاء حقيقياً لقال عنهم القرآن (باكين)" (الشعراوي، 2001).

وقد استعانوا بالقميص الملطّخ بالدم؛ ليبرهنوا على صدق ما ساقوه من كذب في أكل الذئب ليوسفَ ولم يعلموا أن هذا الدليل الحسي سينقلب ضدهم، فكيف لذئب أن يأكل إنسانا دون أن يمزق قميصه؟

ومع محاولتهم إقناع يعقوب – عليه السلام – إلا أنه لم يصدق ما جاؤوا به، فيعقوب النبي يدرك تماما أن هذه ليست هي الحقيقة فيفوض أمره لله ويستعين به أن يرزقه الصبر، وليس أيّ صبر، الصبر الجميل الذي ليس فيه أيّ شكوى أو اعتراض على حكمته تعالى ((وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)) (يوسف: ١٨).

الجبّ المظلم بداية انطلاق

وها هو يوسف الطفل ملقى في بئر موحش بارد بلا قميص يفتقد دفء حضن أبيه الذي اعتاده، مرتقبا لمجهول لا يدري ماذا سيفعل به، لتأتي سيّارة ويتحول من طفل مدلل إلى عبد يباع ويشترى، ((وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)) (يوسف: ١٩).

وقد شكّل الجب هذا المكان المغلق المظلم بداية انطلاق ليوسف.

المفارقة في علاقة يوسف وامرأة العزيز

ومن حياة الرق والعبودية ينتقل يوسف إلى قصر عزيز مصر، ليصبح مقربا له ولزوجه، ويطلب من زوجته أن تُحسن إقامة يوسف عندها وتتخذه ولدا ((وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)) (يوسف: ٢١)، ويبدو أن امرأة العزيز امتثلت لأمره واعتنت به واتخذته ولداً حتى كبُر واشتد عودُه.

"كانت منة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع سبباً لمحنته، وذلك أن امرأة العزيز (وزير الملك) رأت بعين الأنثى جمال يوسف فخفق قلبها واضطرمت مشاعرها، ولما كان هو فتاها ورهين إشارتها هان عليها ما ينتابها من الشوق والحب" (طبّاره، 1982)، وهنا تنقلب أحوال هذه السيدة التي احتضنت يوسف الطفل الصغير وتتغير نظرتُها ليوسف الشاب الذي حباه الله جمالًا لا نظير له، فتنظر له نظرة العاشقة التي لا يُطفئ ظمأها إلا الوصال الحسّي، فتبدأ هذه المرأة بحياكة شباكها باستخدام المكيدة، فصاحب المفارقة هنا امرأة العزيز والضحية يوسف –عليه السلام – الجاهل بما يُحاك حوله من مكائد.

لم ينشغل القرآن الكريم بتفصيل المغريات والغوايات التي حاولت امرأةُ العزيز أن تصل بها إلى قلب يوسف الشاب، ولكن بعد محاولات كثيرة لجأت إلى الحل الوحيد في نظرها وهو المواجهة والمُكاشفة عن مكنونات نفسها وهدفها، ويلخص القرآن الكريم الموقف بكلماتٍ قلائل تشفُّ عن عمق الفاجعة التي ألمّت بيوسف، ويظهر عنصر التوتر جليا، إضافة إلى

الخوف والقلق الذي يسيطر على المتلقي، إذ يشاطر الضحية هواجسها (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف: ٢٣) وكلمة (راودته) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لوناً بعد لون، ذاهبة إلى فن راجعة من فن؛ لأن الكلمة مأخوذة من رودان الإبل في مشيتها تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة واضطرابها في حبها ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها (الرافعي، 2005).

ونلاحظ أن الاسم الموصول (التي) دلّ على العموم، ولم يعيّن امرأة بذاتها، "وهذه كلمة تدل على كل امرأة كائنةً من كانت، فلم يبق على الحب ملكٌ ولا منزلة؛ وزالت الملكة من الأنثى" (الرافعي، 2005)، ولعل مجاورة الضمير المنفصل (هو) للاسم الموصول (التي) تدل على تلاشي الحواجز المادية بينهما، فهما في بيتٍ واحدٍ، وهذا أدعى لفعل الفاحشة.

"وإضافة يوسف إليها، وبأنه في بيتها إشارة إلى أنها ذات سلطان على يوسف الذي هو نزيل بيتها وربيب نعمتها، وأن لها أن تأمر وعليه أن يطيع، فإن لم يكن ذلك بسلطان جمالها كان بسلطان جاهها، فكيف وبيدها سلطان الجمال وسلطان الجاه؟" (الخطيب، 1974).

وانظر أيضاً إلى فعل (وغلّقت) بتضعيف اللام الذي يشير إلى حرصها الشديد على هدفها وذلك في استجابة يوسف لرغبتها، ولعله يحمل في جوهره كثرة الأبواب التي أقفلتها، أضف إلى ذلك أن إغلاقها لهذه الأبواب كان مُحكماً، فقوله تعالى: ((وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)) (يوسف: ٢٣) معنى ذلك أنها أغلقت باباً وراء باب مما يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح؛ ولذلك فهي حريصة على أن تخفي ما ستفعل، وكذلك دليل على أنها تريد إذا فُتح باب أن تنتبه فلا يفاجئها أحد.

يصور مشهد يوسف وامرأة العزيز صراعا بين العفة والشهوة، فامرأة العزيز قامت بثلاث أفعال وهي: تغليق الأبواب والمراودة وقولها هيت لك، وكان ردّ يوسف على تلك الأفعال الثلاثة بثلاث عبارات (معاذ الله) (إنه ربي أحسن مثواي) (إنه لا يفلح الظالمون).

فالمشهد نابض بالحركة يلّفه التوتر والقلق الذي يحس به المتلقي عند قراءته للنص القرآني، فبعد صدّ يوسف لها ومحاولته الهرب يندفع مسرعاً نحو الباب لفتحه، وهي بدورها تلهث وراءه لمنعه، وهذا التضاد في الحركة يخلق نوعاً آخر من المفارقة التي تبلغ ذروتها عند فتح الباب ورؤية العزيز واقفاً أمامهما ((وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (يوسف: ٢٥)، وهنا يبرز دهاء امرأة العزيز ومكرها إذ ألقت بالتهمة على يوسف، فبادرت بسؤال عن مصير من أراد بأهلك سوءاً وذلك لتبعد شكوك زوجها عنها، ومبادرتها بسؤالٍ يفترض جواباً، فكأنها أرادت مهلةً من الوقت، وهي بذلك تريد أن ينشغل زوجها بالبحث عن إجابة، فأرادت أن تغلّق منافذ التفكير عند زوجها كما غلّقت الأبواب فأثبتت أمامه الذنب وأتبعته بالعقوبة وهذا من مكرها وسرعة بديهتها، وفي المقابل يرد يوسف بكلماتٍ مقتضبة غايةً في الحزم والوضوح ((قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)) (يوسف: ٢٦).

وها هي تثبت براءة يوسف بالدليل القاطع، فقد شهد شاهدٌ من أهلها أنه إذا كان القميص مشقوقاً من الخلف فستكون هي الطالبة له لا هو، وإذا كان القميص مشقوقاً من الأمام سيكون الطالب هو لا هي ((قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)) (يوسف: ٢٦– ٢٧)؛ فالقميص هنا شكّل مدلولين: الأول تهمة امرأة العزيز له بفعل الفاحشة، والثاني تبرئته من قبل الشاهد، وعلى إثر ذلك فقد طلب العزيز من امرأته أن تستغفر لذنبها، وطلب أيضاً من يوسف أن يبقي الأمر سراً و لا يذيعه حفاظاً على سمعته. ((فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ* يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)) (يوسف: ٢٨– ٢٩).

وتكمن قمة المفارقة في علاقة يوسف وامرأة العزيز في تبادل الأدوار بينهما؛ فامرأة العزيز (السيدة) تتحول إلى أمَةٍ هدفها الفوز بحبِّ سيدها، ويوسف (العبد) يرفض طلب امرأة العزيز ويترفع عن هفواتها وسقطاتها، كما أنّ الطبيعة البشرية تأبى على الأنثى أن تبادر الرجل في حبها، فما ظنك بامرأةٍ تراود عبدها عن نفسه.

ولم يكن بيت العزيز بما فيه من اتساع وامتداد وترف ليأوي يوسف ويحميه من كيد الكائدين.

السجن فاتحة خير

((قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)) (يوسف: ٣٣– ٣٥).

إنّ القارئ يتعجب من طلب يوسف السجن بدلا من فعله للفاحشة، وهذا حال من يعتصم بدين الله ويتوكل عليه، ونعلم

بعد ذلك أن السجن كان فاتحة خير؛ ففيه يدعو إلى الله ويكون من المحسنين.

"وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الحزن والفرح، فأما الحزن فلأنه سجن ظلماً وما سينجم عن ذلك من سمعة سيئة عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة، وأما فرحه فلخروجه من بيت امرأة العزيز وابتعاده عن المكر والفتنة، ولكن السجن كان فاتحة خير له وربَّ محنة ضمنها منحة" (طبّاره، 1982)، فالسجن أتاح له فرصة الدعوة إلى الله، فلو لم يدخل السجن لظل عبدا لا يملك من أمره شيئاً، فالسجن ظاهره شر محض لكن باطنه فيه الخير الكثير ليوسف، فهو الذي أوصله ليصبح عزيزا في مصر.

ولعل السجن بمفهومه العام يوحي بالانغلاق ومحدودية المكان وتقييد الحرية وما يصاحب ذلك من قهر وذل واستعباد، لكنه مع يوسف كان له شأن آخر، فقد اتسع السجن لدعوته وتحررت مشاعره وأحاسيسه من قيود بيت العزيز.

وفي هذا المكان المغلق يفتح الله على يوسف ويعبّر الرؤى، وتكون هذه أداة إنقاذه من السجن بعد أن عبّر رؤى السجينين ((وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)) (يوسف: ٣٦)

وبعد مدة عبّر رؤيا الملك ((وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)) (يوسف: ٤٣)، وفي رؤيا الملك تضاد وتعارض ظاهري وهذا ما شكل مفارقةً جعلت الملك يحتار في تفسيرها، فكيف تأكل البقرات بنات جنسها؟ وكيف تأكل العجاف السمان! لكن تأويل يوسف لهذه الرؤيا يرفع عنها الغموض والمفارقة؛ فإذا كانت البقرة السمينة ترمز إلى السنة الخيرة والبقرة الهزيلة ترمز إلى السنة المجدبة، عرفنا أن السنوات الخيرة يليها سنوات قحط، فكأن سنوات القحط ستأكل كل ما حصدوه في سنوات الخير، ولهذا رأى الملك في الرؤيا ذاتها سبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

والأمر الذي يدعو إلى الدهشة رفض يوسف الخروج من السجن بالرغم من طول انتظاره للحرية، إلا بعد تبرئته من التهمة التي ألصقت به وأدخل على إثرها السجن، ((وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)) (يوسف: ٥٠).

لقد شكل السجن مكانا لحفظ يوسف من كيد امرأة العزيز والنسوة، وكانت الحكمة الإلهية في نسيان صاحب السجن أن يذكره عند ربه ((وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)) (يوسف: ٤٢).

وخرج يوسف من السجن بعد صاحبيه ببضع سنين، وكان في ذلك الخير له، فقد خرج ليصبح عزيزاً.

يوسف صاحب المفارقة

وبعد أن مكر إخوة يوسف له وأبعدوه عن أبيه، ينجيه الله تعالى بقدرته من الجب وامرأة العزيز والسجن ويجعله على خزائن مصر، وتمر السنوات ويأتي إخوة يوسف ليتزودوا بالميرة، فيعرفهم يوسف ولكنهم يجهلونه، وهذا عائدٌ إلى أن ملامح الإخوة لم تختلف كثيراً مقارنةً بملامح يوسف التي تبدلت تماماً مع مرور السنين الطوال، فضلا عن ذلك لم يخطر ببالهم أن يكون هذا الماثل أمامهم هو يوسف، وأن يكون عزيزاً في مصر ((وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)) (يوسف: ٥٨) وهنا تنعكس الأدوار؛ فيوسف الضحية فيما مضى يغدو صاحب المفارقة، وإخوته هم الضحية، ويبدأ في صنعه للمفارقة بسؤاله عن أخٍ لهم لم يحضروه معهم فيطلب منهم إحضاره في المرة القادمة، وهذا بعد أن أعطاهم ما طلبوا، ليضمن عودتهم إليه، ((وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ* فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)) (يوسف: ٥٩ – ٦١).

ويراود الأبناء أباهم عن اصطحاب أخيهم تلبيةً لرغبة العزيز، لكن الشيخ الكبير يعقوب – عليه السلام – يتردد ولا يأمنهم عليه، كما يعبر عن ذلك صراحةً ((قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)) (يوسف: ٦٤)، وإغراقاً في وضع الحيلة، كان يوسف – عليه السلام – قد أعاد بضاعتهم لهم التي قدموا بها، وهذه الحجة كانت كفيلةً بإقناع أبيهم بضرورة اصطحاب أخيهم ((وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)) (يوسف: ٦٥) وتوكله على الله سبحانه وتعالى لم يمنعه من الأخذ بالأسباب، فأوصى بنيه أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة دفعاً للضرر المحتمل، ومع هذا فهو يعلم أن وصيته لا تدفع عنهم قضاء الله وقدره ((وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ

لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) (يوسف: ٦٧– ٦٨).

و قد كان ليوسف ما أراد، فجاء إخوته مصطحبين أخاهم وتمكّن من أخذ أخيه بعيداً عن مسامعهم، كاشفا له هويته، ليساعده في إيقاع الحيلة بهم ((وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) (يوسف: ٦٩).

ويبقى الإخوة (الضحية) على جهلهم بشخصية يوسف، وهذا يمكّنه من إتمام ما بدأ به، فيضع السقاية في رحل أخيه، وهدفه من ذلك أن يستبقيه عنده، وبعد شيوع خبر ضياع صواع الملك ودفاع إخوته عن أنفسهم يحاورهم بطريقة منطقية ويسألهم عن العقوبة التي ستكون من نصيب السارق، فيجيبونه بالعقوبة المتعارف عليها عندهم أن يُتخذ السارق عبداً ((قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ* قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)) (يوسف: ٧٤ – ٧٥).

ثم يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه ويستخرجها من وعائه، وهذا إمعانٌ في الكيد لهم، وهنا تبلغ المفارقة ذروتها عندما يبررون جريمة أخيهم أن له أخا سارقا وهم لا يعلمون أن الشخص الماثل أمامهم هو يوسف ((قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)) (يوسف: ٧٧).

ورغم ذلك يحاول الإخوة أن يستدرّوا عطف يوسف أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم، ((قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)) (يوسف: ٧٨) لكن شخصية يوسف التي رسمها لإخوته فهو المحسن، فكيف يرضى أن يأخذ أحداً غير الذي سرق؟ فيستسلم الإخوة ويرجعون إلى أبيهم عدا كبيرهم ليخبروه بما حدث.

ولعل المتأمل في أحداث القصة وموقف يعقوب –عليه السلام– مما يفعله أبناؤه يصاب بالدهشة والذهول لتسليم هذا الشيخ بقضاء الله والصبر على أحزانه المتوالية بفقد يوسف ثم فقد أخيه، لكن عندما نصنف الشخصيات وفقاً لثنائية العلم والجهل نستطيع تفسير موقف يعقوب –عليه السلام – من أبنائه، فهو الذي يعلم تأويل رؤيا ابنه يوسف وما ستؤول إليه الأحداث، وهو الذي يعلم بسرائر أبنائه، كما أنّه متيقن من فرج الله القريب بعودة يوسف وأخيه له، وهذا ما يظهر في قوله لأبنائه عند عودتهم دون أخيهم: ((قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)) (يوسف: ٨٣).

والمفارقة هنا أن الأبناء كانوا على يقين تام أن الذئب لم يأكل يوسف، لكنهم أقنعوا أنفسهم بذلك، فبات مستحيلا عليهم تصديق فكرة عودة يوسف وأنه ما زال حيا بعكس قناعة أبيهم، والأمر الذي يدعو إلى الدهشة أن يعقوب –عليه السلام– عندما فقد ابنه الثاني تأسف على فراق يوسف الذي فقده منذ سنواتٍ بعيدة، ولا يذكر ابنه الذي فقده حديثاً، وهذا يعود بنا إلى معرفته بتأويل رؤيا يوسف، لكن هذه المعرفة اليقينية لا تمنعه من الحزن وحث أبنائه أن يبحثوا عن يوسف وأخيه.

((وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ* قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ* قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) يوسف: (٨٤ – ٨٦).

ويدخل الإخوة على عزيز مصر شارحين له ما أصابهم من ضر وبؤس وشقاء، ويحضرون معهم بضاعة مزجاة ليتصدق عليهم بإرجاع أخيهم لهم، وهنا يكشف صاحب المفارقة (يوسف) حقيقة شخصيته وذلك باستدراجهم للتعرف عليه من خلال سؤاله لهم الذي أيقظ في ضمائرهم صورة يوسف التي اندثرت بمرور الوقت، ((قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)) (يوسف: ٨٩–٩٠) وتكمن المفارقة هنا أن الإخوة سرعان ما تعرفوا على يوسف رغم قناعتهم بموته.

((وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ* فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) (يوسف: ٩٤–٩٦).

وتكمن المفارقة هنا أن الإخوة في المرتين هم الذين أحضروا القميص، فكأنهم بذلك يكشفون عن كذبهم الذي طالما حاولوا ستره؛ ففي المرة الأولى أحضروه ملطخا بدم كذب دليلا على صدق ما ساقوه من أكل الذئب ليوسف، وفي المرة الثانية جاءوا به معطرا برائحة يوسف دليلا على أنه ما يزال حيا يرزق، وليس هذا فحسب وإنما هو عزيز مصر.

والقميص في حد ذاته شكل مدلولين ليعقوب الأب، الأول: الحزن المفرط على فراق يوسف، والثاني: الفرح الشديد بقرب لقائه.

من البدو إلى مصر

وها هو يعقوب – عليه السلام – يتوجه هو وبنوه إلى مصر لتتحقق رؤيا يوسف بعد سنوات طويلة من الغربة والوحدة والمعاناة، ((فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ* وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)) (يوسف: ٩٩–١٠٠).

وتظهر المفارقة في رؤيا يوسف أنها حصلت بمكان بسيط خشن العيش ولا أثر للتحضر فيه، وتتحقق الرؤيا في مصر المدينة التي عرفت بحضارتها وعظيم بنيانها وترف أهلها.

وتعود بنا الأحداث إلى بدايتها عندما تآمر الإخوة للتخلص من يوسف بطرحه أرضا تصغيرا من شأنه ((اطرَحُوهُ أَرْضًا)) (يوسف: ٩) وفي المقابل تصل الأحداث إلى تمكين يوسف وعلو شأنه وجعله على خزائن الأرض. ((وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ)) (يوسف: ٥٦).

"ويلاحظ القارئ لهذه القصة الكريمة أن جميع الأماكن المغلقة قد فُتحت في النهاية، فمع كل إغلاق يأتي فرج وفتح :

– فالبئر التي ألقي فيها يوسف – عليه السلام – كانت مغلقة (بالمعنى الرمزي) وقد فتحها الله سبحانه عليه من خلال السيارة التي مرّت لتنتشل الماء من البئر.

– والبيت الذي تربّى فيه يوسف في مصر كان مغلقاً بل مغلّقاً (وغلّقت الأبواب)، غير أن حماية الله سبحانه وتعالى هيأت ليوسف من أمره مخرجاً.

– والسجن الذي كان فيه يوسف فتحه الله عليه بعد أمد، فخرج منه عزيزاً كريماً بريئاً طاهراً كما أحب وكما أحب له الله سبحانه وتعالى" (الحطيني، 2009).

خاتمة

وقد انتهى البحث إلى جملة من النتائج، وهي:

1. أن قصة يوسف من أكثر القصص القرآني غنى بالمفارقات، وهذا يرجع لطول القصة وتنوع شخوصها وأحداثها، وتعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة.
2. بنيت القصة في أساسها على المفارقة، فالهدف الأساس الذي دفع إخوة يوسف للتخلص منه هو كسب محبة أبيهم، إلا أن أباهم ازداد حباً ليوسف الغائب وثقة بعودته، وازدادوا هم بعدا عنه.
3. تبدو المفارقة جليّة في علاقة يوسف بامرأة العزيز فهناك تبادل للأدور؛ فامرأة العزيز (السيدة) تتحول إلى أَمَةٍ هدفها الفوز بحبِّ سيدها، ويوسف (العبد) يتحول إلى سيد برفضه طلب امرأة العزيز، وترفعه عن هفواتها وسقطاتها.
4. حمل المكان في قصة يوسف بعدا مفارقيا فالجب الضيق كان بداية لانطلاق يوسف وترعره في بيت العزيز، كما أن السجن كان فاتحة خير ففيه دعا إلى الله وخرج منه ليكون عزيز مصر.

شكّل القميص بُعداً مفارقيا في قصة يوسف –عليه السلام– إذ كان له أهمية في تطور الأحداث ونموها؛ فالقميص من حيث مدلوله يقصد به الستر، وبإزالته يتضمن معنى الكشف والإبانة، ففي وروده للمرة الأولى كشف عن كذب إخوته في مقولتهم لأبيهم إن الذئب قد أكل يوسف، وأتوا بالقميص الملطخ بالدم دليلاً على صدق قولهم، وفي الثانية كشف عن كذب امرأة العزيز فيما اتهمت به يوسف من ارتكابه للفاحشة، وفي الثالثة أبان حقيقة أن يوسف ما زال على قيد الحياة وكشف الغم والحزن عن أبيه؛ فالقميص الذي أرسله لأبيه المعطر برائحته الزكية كان عوضا عن القميص الملطخ بدمٍ كذب.

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

إبراهيم، ن. (1995). فن القص في النظرية والتطبيق، القاهرة: دار الغريب، ص138-201.

الحطيني، ي. (2009). ملامح السرد القرآني، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ص59-63.

الخطيب، ع. (1974). قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، القاهرة: دار الفكر العربي، ص46-75.

الرافعي، م. (2005). وحي القلم، بيروت: دار ابن حزم، ص115-117.

الرباعي، ع. (1996). صور من المفارقة في شعر عرار (بحوث عربية مهداة إلى الدكتور محمود السمرة)، دار المناهج، ص298.

شبانة، ن. (2002). المفارقة في الشعر العربي الحديث، ط1، الأردن: دار الفارس، ص30-67.

الشرقاوي، أ. (2003). المرأة في القصص القرآني، ط2، دار السلام، ص261.

الشعراوي، م. (2001). قصص الأنبياء والمرسلين، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، ص137-139.

الشعراوي، م. (2007). قصص الأنبياء دروس وعبر، بيروت: دار القلم، ص137-138.

طبّاره، ع. (1982). اليهود في القرآن، ط9، بيروت: دار العلم، ص148-152.

قاسم، س. (2006). المفارقة في القص العربي المعاصر، القاهرة: مجلة فصول، العدد 68، ص.

ميويك، د. (1987). موسوعة المصطلح النقدي (المفارقة وصفاتها)، (ترجمة) عبد الواحد لؤلؤة، بغداد: دار المأمون، بغداد، ص36-56.

النيسابوري، ن. (1995). غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ط1، (تحقيق) زكريا عميرات، بيروت: دار الكتب العلمية، ص56.

يوسف، ح. (2001). المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي، ط1، القاهرة: الدار الثقافية، ص18.

Dramatic of Irony in the Story of Prophet Joseph (PBUH)

Rana A. AbedAl-Haleem*

ABSTRACT

This research aims at detecting the effectiveness of irony in the story of Prophet Joseph (PBUH), by demonstrating the aesthetic features of this story. For this purpose, the research depended on one type of Irony; the Dramatic Irony, which is the most proper in studying stories, as it depends primarily in its essence on the progress and complication of events. I have relied on the Holy Quran as a sole and sufficient basic source for research.

The research concluded that the story of Joseph is one of the richest Quranic stories in ironies, considering its length, variation in characters and events, the sequence of time events and the variety in places of those events.

Keywords: *

* *, *, Jordan. Received on 29/03/2015 and Accepted for Publication on 11/06/2016.